سلسلة
إصدرات
مركز
الموعود
الثقافي
[الكويت]

القانون الأخلاقي
كمفتاح لفهم
معنى الخَلق

سي. أس. لويس

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ صلِّ على محمّد وآل محمّد

اسم الكتاب: القانون الأخلاقي كمفتاح لفهم معنى الخلق

المؤلف: C. S. Lewis

عدد الصفحات: 41 ص.

المصدر: Mere Christianity By: C. S. Lewis [بتصرّف]

المعرّب: محمّد حيَات

الناشر: مركز الموعود الثقافي – الكويت

(جزء من سلسلة إصدارات المركز المعدّة)

رقم الإصدار: 2

الطبعة: نسخة إلكترونية – 2013 م / 1434 هـ

مركز الموعود الثقافي

Almaw3oud@Gmail.Com

كلمة المركز

هذا الكتاب هو انتخاب لفصول مختارة من كتاب المسيحية المجرّدة للفيلسوف الإنجليزي المعاصر «سي. أس. لويس» حول نظريته في قانون الطبيعة الإنسانية كمدخل لفهم الخليقة. وإنّ إيمان مركز الموعود الثقافي بنشر المعرفة حتّم عليه المساهمة في ذلك، فكانت ترجمة هذه الفصول من لغتها الإنجليزية إلى العربية وتقديمها للقرّاء الكرام على أمل أن لا تخلو هذه الفصول من الفائدة والاستفادة. والله عزّ وجل وليّ التوفيق.

والحمد لله ربّ العالمين

الفهرس

قانون الطبيعة الإنسانية 5

بعض الاعتراضات 13

حقيقة القانون 21

ما وراء القانون 28

ملاحظة 34

لدينا سبب يدفعنا للقلق..... 36

قانون الطبيعة الإنسانية

لابد أن كل واحد منا قد شاهد نزاعًا بين الناس يومًا ما، في بعض الأحيان يكون وقع هذه النزاعات مضحكًا، وفي أحيانٍ أخرى يكون وقعها محزنًا فحسب، وبغض النظر عن وقع تلك النزاعات في النفس، أعتقد أنه بإمكاننا أن نتعلم شيئًا مَهمًا جدًا من استماعنا لما يقوله المتنازعون فيما بينهم. إنهم يقولون أشياء مثل "كيف كنت ستشعر لو فعل بك أحدهم ذات الشيء؟" أو "هذا مقعدي، أنا جلست أولاً" أو " دعه وشأنه، فإنه لا يسبب لك أي أذى" أو " لماذا تدخل أنت أولاً؟" أو "أعطني بعضًا من البرتقال الذي لديك فقد أعطيتك بعضًا مما لدي" أو "هيا، لقد وعدتني!" يتداول الناس مثل تلك الأحاديث بشكل يومي، يستخدمها المتعلمون منهم تمامًا كما يستخدمها غير المتعلمين، الأطفال منهم والبالغين كذلك.

إن ما يشد انتباهي الآن من كل تلك الملاحظات هو أنّ قائلها لا يعني أن الطرف الآخر يقوم بتصرفات لا تعجبه فحسب، بل أنه يتطلع إلى معيارٍ أخلاقيّ معيّن يتوقع من الطرف الآخر أن يكون متآلفًا معه، ونادرًا ما ترى أن يجيب الطرف الآخر يجيب بالتالي:" إلى الجحيم أنت ومعيارك"! تقريبًا، دائمًا ما يريد الطرف الآخر أن يبيّن أن ماكان يقوم به لا يتعارض مع تلك المعايير، أو أنه حتى لو تعارض مع المعيار فإن ذلك لأعذار خاصة. إنه يتعلل بأن هناك سببًا خاصًا في هذه القضية تحديدًا يُعطي الذريعة بأن الجلوس على المقعد أوّلاً لا يعني امتلاكه، وهكذا مع باقي القضايا السابقة كأن الوضع كان مختلفًا قليلاً حينما قام بإعطاء الطرف الآخر بعض البرتقال، أو أن هناك طارئ قد ظهر ممّا جعله يخلف وعده. في الحقيقة، يبدو جليّا بأن كلا الطرفين قد سبق وامتلكا في ذهنيهما نوعًا من

القوانين أو القواعد العادلة أو السلوك المحترم أو الأخلاقيات أو سمّه ما شئت، بحيث اتفقا واقعًا عليه. وهما فعلاً قد اتفقا عليه، وإلا لو كان الحال أنهما لم يتفقا، لربّما تجدهما الآن يتصارعان كالحيوانات المتوحشة، ولكنهما لا يستطيعان أن "يتصارعا" بما تعنيه الكلمة في الإدراك الإنساني، فالصراع يعني محاولة إظهار الطرف الآخر بأنه قد جانب الصواب.

لولا ذلك الاتفاق المسبق، لما كانت المحاولة منطقية إلا إذا اتفق الطرفان حول ما هو الصواب والخطأ، كما أنه ليس منطقيًا أن نقول بأن اللاعب قد ارتكب مخالفة إلا إذا كان هناك اتفاق مسبق حول قواعد كرة القدم.

الآن، هذا القانون أو هذه القاعدة حول الصواب والخطأ قد تعارف عليها الناس في السابق باسم "قانون الطبيعة". في يومنا الحاضر، حينما نتلفّظ بـ"قوانين الطبيعة" فإننا نعني عادة أشياء كـ"الجاذبية الأرضية" أو "الوراثة" أو "قوانين الكيمياء"، لكن المفكرين القدماء حينما سمُّوا قانون الصواب والخطأ بـ"قانون الطبيعة"، فإنّ المعنى الذي أرادوه يشير بالفعل إلى قانون الطبيعة الإنسانية. وتوضيحه كالتالي: كما أن كل الأجسام محكومة بقانون الجاذبية الأرضية، وكل الكائنات محكومة بقوانين علم الأحياء، بالتالي فإن ذلك المخلوق المسمّى بـ"الإنسان" لديه قانونه الخاص مع اختلاف عظيم عمّا سبق بأن الأجسام لا تستطيع أن تختار طاعة الجاذبية الأرضية أو مقاومتها، لكن الإنسان يستطيع أن يطيع أو يعصي قانون الطبيعة الإنسانية.

يمكن توضيح ذلك بصورة أخرى: في كل لحظة، يكون الإنسان خاضعًا للكثير من القوانين المختلفة، لكن هناك قانونًا واحدًا فقط من بين تلك القوانين يمكن للإنسان أن يرفضه[1]، فالجسم محكومٌ بقانون الجاذبية الأرضية دون مقدرة على مقاومة ذلك القانون، بحيث لو تركت ذاك الجسم دون مساعدة في الهواء، فلن يملك أي فرصة تحول دون سقوطه، تشاهد ذلك في الصخرة كما تشاهده في الكائن الحي، فإنه خاضعٌ لقوانين علم الأحياء المتنوعة التي لا يستطيع أن يقاومها، متساويًا مع الحيوان في ذلك. هذا يعني أن الإنسان لا يمتلك القدرة أن يعصي هذه القوانين التي يشترك فيها مع الأشياء الأخرى، في حين أن القانون الخاص بطبيعته الإنسانية الذي لا يشترك فيه مع الحيوانات أو الخضروات أو الكائنات اللا عضوية، فإن الإنسان يستطيع أن يرفض الانصياع لتلك القوانين إذا ما اختار ذلك.

سُمّي هذا القانون بـ"قانون الطبيعة"، لأن الناس ظنوا أن كل فردٍ منهم قد عرف هذا القانون من الطبيعة دون الحاجة إلى تعلّمه. أودّ هنا التأكيد على أن الناس لم يقصدوا بذلك أنك لن تجد أفرادًا غريبي الأطوار هنا وهناك ممن لم يعرفوا ذلك القانون، مثل ذلك كمثل وجود بعض الناس المصابين بعمى الألوان أو المصابين بالصُّم بالنسبة للألحان، بل يقصدون بشكل مجمل وعام أن فكرة الإنسان حول السلوك الأخلاقي اللائق هي فكرة

(1) بمعنى أن هناك نوعًا واحدًا من القوانين – كما سيتبيّن – يملك الإنسان القدرة على إتباعه أو مخالفته [المعرّب]

على درجة كبيرة من الوضوح عند واضحة غالبية الأفراد، وأنا أعتقد أنهم كانوا على حق، وإلا لأصبح كل ما قلناه حول الحرب هراءً[1].

توضيح ذلك: ما هو المنطق المرجو من القول بأن العدو مخطئ إلا إذا كان الحق هو شيء حقيقي يعرفه النازيون في داخلهم كما نعلمه نحن، وكما كنا نحاول أن نبيّن ذلك؟ إن لم تكن لهم فكرة حول معنى الحق الذي نقصده، لربما كنا – بالرغم من ذلك – نستمر في قتالهم دون استطاعتنا أن نتوجه باللوم لهم على خوض هذه الحرب [العالمية الثانية].

أعلمُ أن هناك من يقول بأن فكرة القانون الطبيعي أو السلوك الأخلاقي اللاثق لا يتفق معها الجميع، لأن الحضارات والعصور المختلفة خلّفت أخلاقيات متباينة، ولكن ذلك غير صحيح، نعم كانت هناك أخلاقيات متباينة، ولكن ذلك التباين لا يعني الاختلاف المطلق بينها! فلو تعنّى أحدنا ليقارن التعليم الأخلاقي لدى المصريين القدماء والبابليين والهندوس والصينيين واليونانيين والرومان، فإنه سيتفاجئ بمدى تقاربها من بعضها ومدى قربها من تعاليمنا نحن!

في كتابي "إلغاء الإنسان" وضعت ملحقًا فيه بعض الشواهد على ذلك، ولكن لأجل هدفنا الحالي أدعو القارئ ليتفكر بمدى الاختلاف الذي يمكن أن يحمله مصطلح "الأخلاقيات". فكّر في بلدٍ ما حيث الناس يعشقون الهروب من المعركة، أو شخص

[1] يشير الكاتب بـ"كل ما قلناه" إلى الجدال الذي حصل وتداوله المفكرون والمثقفون في وسائل الإعلام المختلفة أثناء الحرب العالمية الثانية [المعرّب]

يتفاخر بأنه قد خان كل الناس الذين عاملوه بلطف في حياته، حتى يمكنك أن تتخيل بلدًا يعتقد أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة. إن الناس قد يختلفون بملاحظتهم لمن كنت تفضلّهم على نفسك سواء كانوا من العائلة أو أبناء جلدتك أو الجميع، لكنهم جميعًا يتفقون على أن لا تضع نفسك قبلهم، فالأنانية لم تكن محلّ إعجابَ أحدٍ قط. اختلف الناس في هل أن عليك الاكتفاء بزوجة واحدة أو الزواج من أربع، ولكنهم اتفقوا دائمًا على أنه ليس من الضروري أن تحصل ببساطة على المرأة التي تعجبك.

من ناحية أخرى، فإنّ أروع شيء يمكن أن تجده هو التالي: كلما وجدت شخصًا يقول بأنه لا يؤمن بحقيقة الصواب والخطأ، فإنك ستجد ذلك الشخص نفسه يعود إلى هذه النقطة بعد حين، فهو قد يكسر وعدًا قد قطعه لك، ولكنك لو حاولت أن تكسر وعدًا قطعته له فإنه سوف يتذمر قائلاً:"هذا ليس عدلاً" قبل أن تنبس ببنت شفة! قد تقول أُمّة ما أن المعاهدات غير مهمة، ولكن بعد لحظات، تجدهم يفسدون موقفهم بالقول أن تلك المعاهدة الفلانية يريدون كسرها والسبب أنها ليست عادلة! ولكن لو كانت المعاهدات غير مهمة، أو لو لم يكن هناك معنى حقيقي للحق والباطل، وبمعنى أدق: لو لم يكن هناك قانونٌ للطبيعة، إذا ما الفرق بين المعاهدة العادلة والمعاهدة غير العادلة؟ هلاّ أفصحوا عمّا في جعبتهم واعترفوا بأنهم محكومون بقانون للطبيعة كما يحكم أي شخص آخر؟ على ما يبدو، إننا مجبرون على الاعتقاد بوجود الصواب الحقيقي والخطأ، والناس قد يخطئون فيهما أحيانًا كما يخطئون أحيانًا في عمليات الجمع، لكنهما، أي الصواب والخطأ، لا يخضعان للأذواق المجردة والأهواء تمامًا كحال جدول الضرب.

الآن، إذا ما اتفقنا حيال هذه النقطة، سوف أنتقل إلى نقطتي التالية: لا يقدر أحدٌ منّا على الحفاظ على قانون الطبيعة دائمًا، ولو كان هناك أي استثناءات في المجتمع، فأنا أعتذر منهم، فمن الأفضل لهم أن يقرؤوا كتابًا آخرَ غير هذا، لأن ما سأقوله لا يخصهم على الإطلاق.

والآن علي أن أعود إلى البشر الاعتياديين المتبقين منهم. أتمنى ألاّ يُساء فهمي فأنا لا أعظ الآن، والسماء تعلم بأنني لا أدّعي أفضليتي على أي أحدٍ آخر. أنا أحاول فقط أن ألفت الانتباه نحو حقيقة ما، حقيقة أننا في هذا العام أو هذا الشهر أو حتى في هذا اليوم، قد فشلنا في تدريب أنفسنا على السلوك الذي نرغب بوجوده في الآخرين، وأعذارنا لا تُعد ولا تُحصى لتبرير تقصيرنا، ففي اللحظة التي قمنا فيها بظلم الأطفال، كنّا مُرهقين جدّا، وتلك المعاملة المالية المشبوهة جدًا التي قمت بها – والتي قد تكون نسيتها تمامًا – حدثت حينما كنت ضعيفًا ويائسًا جدّا، وأنّ ما وعدت بفعله لشخص كبير في السن ولكنك لم تقم به إطلاقًا، فإنك ستقول لو علِمتُ بأنني سأنشغل بشكل كبير هكذا لما قطعت على نفسي وعدًا. كما أن سلوكك تجاه زوجتك أو زوجك، أختك أو أخيك، تبرره بـ "لو كنت تعلم كم هم مزعجون لما تعجبت من سلوكي هذا" ومن أنا بحق السماء؟ أنا مثلهم تمامًا، على كُلٍ، أنا هنا لا أقدّم تنظيرًا، بل أنا مثلكم تمامًا، بمعنى أنني لا أنجح في الاحتفاظ بقانون الطبيعة بشكل جيد، وبمجرد أن يقول لي أحدهم أنني فقدت السيطرة، فإنني أبدأ بتأليف سلسلة من الأعذار التي يبلغ طولها ذراعًا!

السؤال هنا لا يدور حول مدى جودة هذه الأعذار، بل النقطة الأساسية هي أنّ هناك دليلٌ إضافيّ عميق على اعتقادنا بقانون الطبيعة، شئنا أم أبينا. فإذا كُنا لا نعتقد بوجود السلوك الأخلاقي اللائق، لماذا إذن نتوق لخلق الأعذار لتصرفاتنا غير اللائقة؟ الحقيقة أننا نؤمن واقعًا بالسلوك الأخلاقي اللائق، وشعورنا بقوة هذا القانون الذي يضغط علينا بشدة لدرجة أننا لا نقدر على الاعتراف بحقيقة أننا نخالف هذا السلوك، وبالتالي فإننا نقوم بتحويل المسؤولية عنّا. لاحظ أننا وبسبب سلوكياتنا السيئة أوجدنا كل هذه الأعذار. إننا وبسبب مزاجنا السيء أظهرنا التعب أو القلق أو الجوع، وأخمدنا الخُلق والمزاج الحسن بداخلنا.

إذن، يمكن تلخيص النقطتان اللتان أردت طرحهما:

أولاً: كل البشر حول العالم يحملون في داخلهم تلك الفكرة اللافتة التي تدفعهم للتصرف وفق طريقة محددة، دون أن يملكوا القدرة على التخلص منها.

ثانيًا: إنهم لا يقومون بالتصرف وفق تلك الطريقة التي أشرنا إليها حقيقة، فهم يعرفون قانون الطبيعة ولكنهم لا يلتزمون به.

إن هاتين الحقيقتين هما الأساس للتفكير المجرد بأنفسنا وبالكون الذي نعيش فيه.

بعض الاعتراضات

إذا كانت النقطتان اللتان ذكرتهما في نهاية الحديث السابق هما الأصل، فعليّ أن أتوقف الآن عن تأصيلهما قبل انتقالي للنقطة التالية. الكثير من الناس يجدون ما سطرته مسبقًا من الكلمات عصيّا على أفهامهم كـ: قانون الطبيعة الإنسانية أو قانون الأخلاق أو قاعدة السلوك اللائق. كتب إليّ بعضهم، على سبيل المثال، قائلين: "أليس ماتعنيه من القانون الأخلاقي هو ببساطة غريزة القطيع[1] التي نملكها والتي لم تتطور حالها كحال باقي غرائزنا الأخرى؟" أنا الآن لا أنكر امتلاكنا لغريزة القطيع، ولكن ليس هذا ماعنيته من القانون الأخلاقي. جميعنا يدرك الشعور المتولد من تحفيز غريزة ما، كغريزة الأمومة مثلاً أو الشهوة الجنسية أو شهية الطعام، فذلك يعني وجود شعورٍ مُلح برغبة قوية للتصرف بطريقة معينة. وبالتأكيد، في أحيان أخرى نشعر برغبة في مساعدة شخص ما، ولا شك أن تلك الرغبة نتيجة لغريزة القطيع. ولكن الحال يختلف حينما تشعر برغبة في مساعدة الآخرين، وبين وجوب تقديمك للمساعدة سواء رغبت بذلك أم لم ترغب. لنفترض أنك سمعت صراخًا لطلب المساعدة من الخطر من قِبَل أحدهم، فإنك ستشعر برغبتين: رغبة أولى بتقديم المساعدة (بناء على غريزة القطيع) ورغبة ثانية بالابتعاد عن الخطر (بناء على غريزة حفظ النفس)، وعلاوة على هذين الدافعين، فإنك ستجد في نفسك شعورًا ثالثًا يدفعك نحو دافع تقديم المساعدة وإخماد دافع الهرب. هنا، هذا الحاكم بين غريزتين الذي يجب تعزيزه، يستحيل أن يكون واحدًا منهما، كما يمكنك أن تقول أن التوزيع الموسيقي الذي يرشدك للعزف على هذا البيانو وليس على بيانو آخر، هو نفسه إحدى

[1] ويُقصد به سلوك الأفراد في الجماعة حين ينساقون مع سلوكيات الجَمْع دون تفكير [المعرّب]

النوتات الموجودة على لوحة المفاتيح، فالقانون الأخلاقي هو الذي يرشدنا نحو اللحن المناسب لعزفه، وغرائزنا هي المفاتيح.

حينما نلقي نظرة مختلفة على ذلك القانون الأخلاقي، فهو ليس مجرد غريزة نملكها، فلو تنازعت غريزتان ولم يكن في ذهن الإنسان شيء غير تلك الغريزتين، من الواضح أن الغريزة الأقوى ستتغلب، ولكن في تلك اللحظات التي نكون واعين بشكل كاف بالقانون الأخلاقي، فإن هذا الوعي يدفعنا نحو الاصطفاف مع الحافز الأضعف، فربما "تريد" أن تحفظ نفسك أكثر من إرادتك بمساعدة ذلك الرجل الذي يغرق، ولكن القانون الأخلاقي يدفعك نحو مساعدته في ذات الوقت. وبالتأكيد فإنّ كثيرًا ما يخبرنا ذلك القانون بأن علينا تقوية الدافع الصحيح أكثر وأكثر، بمعنى أننا كثيرًا ما نشعر بأن واجبنا هو تحفيز غريزة القطيع عبر تنشيط الخيال وإظهار الشفقة وما إلى ذلك، كل هذا من أجل شحن النفس للقيام بالعمل الصحيح. ولكن من الواضح أننا لا نتصرف عن غريزة حينما نقرر تقوية غريزة على الأخرى. فالنداء القائل: "غريزة القطيع نائمة لديك، أوقظها" لا يمكن أن يكون هذا النداء هو ذاته غريزة القطيع. كذلك النداء الذي يرشدك نحو رفع صوت العزف على البيانو لا يمكن أن يكون هو ذاته النوتة الموسيقية.

وفي نظرة ثالثة على ذات الموضوع، إذا كان القانون الأخلاقي هو أحد الغرائز التي نملكها، فيحتمل ذلك القول أننا نستطيع الإشارة على دافع بداخلنا نطلق عليه صفة الـ "حَسَن"، دائمًا ما يكون هذا الدافع متلازمًا مع تعريفنا للسلوك الحسن، ولكن ذلك غير ممكن،

فالقانون الأخلاقي يمكنه دومًا إخبارنا عن الدوافع التي يجب إخمادها، كما أنه يمكنه دائمًا إخبارنا عن الدوافع التي علينا تقويتها، فمن الخطأ أن نعتقد بأن بعض دوافعنا – لنقل مثل حب الأم أو الوطنية- هي دوافع حسنة، بينما غرائز أخرى كالجنس والقتال هي غرائز قبيحة. جُل ما نعنيه هو أن في مواقف معينة يجب كبح غريزة القتال أو الشهوة الجنسية، وفي مواقف أخرى علينا أن نعزز غريزتي حب الأم أو الوطنية. أي أنّ هناك مواقف بحيث يكون من واجب الزوج أن يقوي دافعه الجنسي، والجندي أن يعزز دافعه القتالي، كما أن هناك مواقف توجب على الأم إخماد حبها لأطفالها أو أن يخفف الرجل من حبه لوطنه وإلا سيقود ذلك إلى ظلم أطفال آخرين وأوطان أخرى. بصراحة، ليس هناك دافع يُوصم بالـ"حسن" أو الـ"قبح"، ارجع قليلاً إلى مثال البيانو، فلا يوجد على منضدته نوتة موسيقية صحيحة وأخرى خاطئة، فكل نوتة موسيقية صحيحة في وقتها، وخاطئة في وقت آخر. والقانون الأخلاقي ليس غريزة لأحد ولا هو مجموعة غرائز، بل هو شيء يشكّل شعورًا ما، وهو شعور نصمه بالحسن أو التصرف الصحيح، ومن خلاله نوجّه الغرائز.

الجدير بالذكر أن تلك النقطة ذات عاقبة عملية عظيمة، إن أخطر ما يمكنك فعله هو جعل دافعًا ما في طبيعتك هو الأساس الذي من المحتمل أن تتبعه بأي ثمن، فإن كل دافع من الدوافع يمكن أن يحوّلنا أشرارًا إذا ما جعلناه هو المرشد أو الدليل المطلق. ربما تعتقد أن حب الإنسانية هو بشكل عام باعث للأمان، ولكن ذلك غير صحيح، فلو تخلّيت عن العدالة فإنك ستجد نفسك تكسر الاتفاقيات وتزوّر الأدلة كل ذلك "في سبيل الإنسانية"، وتصبح في النهاية رجلاً قاسيًا خائنًا.

كتب إلي بعض الناس قائلين: "هل ما تُسمّيه بـ"القانون الأخلاقي" هو ببساطة تقليد اجتماعي، شيء ما غُرس بداخلنا عبر التعليم؟" أعتقد أن هناك سوء فهم، إن الأشخاص الذين طرحوا هذا التساؤل وضعوا في عين الاعتبار أن كل ما تعلمناه في حياتنا من الوالدين والدراسة مصدره اختراع إنساني محض، ولكن ذلك ليس صحيحًا بالطبع. كلنا تعلمنا جدول الضرب في المدرسة، والطفل الذي ينشأ وحيدًا في جزيرة مهجورة لن يعرفه، طبعًا ذلك لا يعني أن جدول الضرب هو تقليد إنساني، شيء اخترعه البشر لأنفسهم ولربما اخترعوا شيئًا آخر أحبوه أكثر. أنا أتفق تمامًا مع القول بأننا تعلمنا قاعدة السلوك اللائق من والدينا ومُعلمينا، أصدقائنا وكتبنا كما تعلمنا أي شيء آخر. لكن بعض ما تعلّمناه هي تقاليد محضة ربما كانت مخالفة للواقع، تعلمناها لنأخذ الجانب الأيمن من الطريق على الرغم من أنها صالحة كقاعدة حتى نأخذ الجانب الأيسر، والبعض الآخر مما تعلمنا كالرياضيات مثلاً، هي حقائق محضة، والسؤال هنا: إلى أي فئة ينتمي قانون الطبيعة الإنسانية؟

هناك سببان يجعلان قانون الطبيعة الإنسانية ينتمي لنفس الفئة التي تنتمي لها الرياضيات. السبب الأول هو كما ذكرته في الباب الأوّل أنه برغم وجود اختلافات بين الأفكار الأخلاقية في وقت ما أو بلد ما عن بلد وزمن آخرين، فإنّ تلك الاختلافات ليست كبيرة كما يتصور معظم الناس، ويمكنك إدراك أن ذات القانون يجري خلالهم جميعًا، بينما التقاليد المحضة كقانون المرور أو نوعية الملابس التي يرتديها الناس، قد تختلف إلى أبعد الحدود. والسبب الآخر هو التالي: حينما تفكر بتلك التباينات الأخلاقية بين جماعة وأخرى من الناس، هل تعتقد أن أخلاق جماعة أفضل أو أسوأ من الجماعة الأخرى؟ هل كانت الأفضلية مبنية على

التحسينات؟ إذا كانت الإجابة لا، إذن بالتأكيد لا يوجد أي تقدم أخلاقي، التقدم لا يعني مجرد التغيير، ولكن يعني التغيير للأفضل. بمعنى أنه لو لم تكن مجموعة من الأفكار الأخلاقية أكثر صدقًا أو أفضل من مجموعة أخرى، فلن يكون هناك أي معنى لتفضيل أخلاق حضارية على أخرى همجية أو أخلاق مسيحية على أخرى نازية. في الحقيقة، نؤمن جميعًا بكل تأكيد أن بعض الأخلاقيات أفضل بكثير من أخلاقيات أخرى، ونؤمن بأنّ بعض الناس الذين حاولوا تغيير الأفكار الأخلاقية السائدة في عهدهم نُسميهم "مُصلحين" أو "الرواد"، هم الذين فهموا الأخلاقيات بصورة أفضل من جيرانهم. حسنًا، حالما تقول بأن مجموعة من الأخلاق يمكن أن تكون أفضل من الأخرى، فأنت في الواقع تقيسها بناءً على معيار ما، بحيث تقول أن إحداهما مطابقة للمعيار بشكل أكبر من الأخرى. ولكن المعيار الذي تقيس به شيئين مختلف عن الشيئين.

في الحقيقة، أنت تقارن بين شيئين بناء على أخلاقيات حقيقية، معترفًا بوجود شيء اسمه الصواب الحقيقي الذي يستقل عمّا يعتقده الناس، وأن أفكار بعض الناس تقترب من ذلك الصواب الحقيقي أكثر من الأفكار الأخرى. بمعنى آخر، إذا كانت أفكارك الأخلاقية يمكن أن تكون أكثر صوابًا، وأن أفكار النازيين الأخلاقية أقل صوابًا، فلا بد من وجود أخلاقيات حقيقية تضفي الصواب عليها، فالسبب وراء جعل أفكارك عن نيويورك أكثر أو أقل صوابًا من أفكاري هو أن نيويورك مكان حقيقي موجود خارج نطاق ما نعتقده، فكل واحدٍ منّا حينما يقول "نيويورك" يعني بتجرد "المدينة التي أتصورها في رأسي" فكيف يمكن لأحدنا أن يملك أفكارًا أكثر صوابًا من الآخر؟ إذًا، لن يوجد أي تساؤل حول الصدق أو الزيف إطلاقًا.

وبذات الطريقة، إذا كانت قاعدة السلوك الأخلاقي اللائق تعني ببساطة: "كل ما تستحسنه أمّة ما"، فلن يوجد أي معنى في القول أن أمّة ما أكثر صوابيةً في استحسانها من أي أمّة أخرى، لا يوجد أي معنى للقول بأن العالم قد ازداد سوءًا أو فضلاً من الناحية الأخلاقية.

أختم هنا بأنه برغم اختلاف الناس حول السلوك الأخلاقي اللائق ما يجعل الشك يتسرب للنفس بإنعدام وجود القانون الأخلاقي الطبيعي الحقيقي، إلا أن ما يدفعنا نحو التفكير بهذه الاختلافات حقيقة يثبت العكس تمامًا. وكلمة إضافية أخرى قبل الختام، لقد قابلت أشخاصًا ممن يضخّمون الاختلافات لأنهم لم يفرّقوا بين الاختلافات الأخلاقية والاختلافات الاعتقادية حول الحقائق. على سبيل المثال، قال لي رجل: "قبل ثلاثمئة عام كان الإنجليز يقومون بإعدام الساحرات، هل هذا ما تسميه قانون الطبيعة الإنسانية أو السلوك الصحيح؟" لكن – وبالتأكيد – السبب الذي يحول دون قيامنا بإعدام الساحرات هو أننا لا نؤمن بتلك الأشياء، لو كنا نؤمن بذلك – لو كنا نعتقد حقيقة بأن هناك أناسًا قد باعوا أنفسهم للشيطان وبذلك حصلوا في المقابل على قدرات خارقة منه وقاموا باستخدام تلك القدرات لقتل جيرانهم أو قادوهم للجنون أو جلبوا الطقس السيء– فبالتأكيد سنتفق على أن هؤلاء الدمى الخبيثة يستحقون عقوبة الإعدام. لا يوجد أي اختلاف على المبدأ الأخلاقي هنا، بينما الاختلاف ببساطة حول الحقيقة. فقد يكون هناك تقدم في المعرفة بعدم الإيمان بالساحرات، ولكن لن يوجد أي تقدم أخلاقي إن لم نقم بإعدامهن حين نعلم بوجودهن. إنك ربما لن تطلق

لقب "إنساني" على رجل يمنع من نصب الأفخاخ للفئران إذا فعل ذلك لعلمه بعدم وجود فئران بالمنزل[1].

(1) هنا قضية تستحق الالتفات لها، إن تغير العلم بالأشياء وإدراكها يغيّر الحكم عليها، فإطلاق لقب مجنون على رجل يفعل حركات بهلوانية في الشارع العام أمرٌ له ما يبرره لكن هذا اللقب لا يمكن إطلاقه على رجل يفعل ذات الفعل إذا كان يلبس لباس المهرجين، إن حقيقة الفعل لم تتغيّر لكن إدراك موضوعه هو ما تغيّر فتغير الحكم على أساسه [المعرّب]

حقيقة القانون

أعود الآن إلى ما قلته في ختام الباب الأول: هناك شيئان غريبان عن الجنس البشري.

الأول: أنهم مأسورون بفكرة وجود نوع من السلوك الذي يجب عليهم ممارسته، السلوك الذي قد تُسميه "العدل"، أو "الأدب"، أو "الأخلاقيات" أو قانون الطبيعة.

الثاني: أنهم ليسوا مأسورين بتلك الفكرة حقيقة.

ربما الآن البعض منكم يتعجب لأنني وصفت تلك الحالة بـ"الغرابة"، فربما يبدو لك الأمر بأن تلك الحالة هي من أبده البديهيات في العالم، وبمعنى أدق، قد تظن بأنني كنت قاسيًا بعض الشيء على الجنس البشري. عمومًا، ربما تقول بأن ما أسمّيه كسرًا لقانون الصواب والخطأ أو القانون الطبيعي يعني أن الناس ليسوا بكاملين، ولماذا حري بي أن أعتقد غير ذلك؟ ذلك سيكون جوابًا جيدًا إذا ما كانت محاولتي هي ترسيخ حجم اللوم القائم علينا لأننا لم نتصرف كما نتوقع من الآخرين أن يتصرفوا. ولكن تلك ليست وظيفتي إطلاقًا، فأنا لست معنيّا في الوقت الحالي بالحديث عن الملامة، بل أنا أحاول البحث عن الحقيقة، ومن وجهة النظر القائلة بأن شيء ما لا يتّسم بالكمال لأنه لا يتفاعل مثلما يجب عليه، تلك الفكرة لها عواقب محددة.

إذا تحدثنا عن شيء ما كصخرة أو شجرة، فإنها هي كما تبدو، وليس هناك منطق في القول أن ذلك الشيء يجب أن يكون شيئا آخر، بالطبع يمكنك أن تقول "شكل الصخرة غير مناسب" إذا كنت تريد أن تستخدمها من أجل حديقة صخرية أو جبلية، أو تلك الشجرة سيئة لأنها لا تعطيك الظل الكافي كما توقعته، لكن ذلك يعني أن تلك الصخرة أو تلك الشجرة

ليست ملائمة لسبب ما يخصك، فأنت لا تلقي اللوم عليها إلا من باب المزاح، فأنت تعلم يقينًا أن الطقس والتربة ينتجان شجرة اعتيادية. من وجهة نظرنا، فإنّ الشجرة التي نطلق عليها أنها "سيئة" هي تمامًا مثل الشجرة التي نطلق عليها بـ"الجيدة" امتثالاً لطبيعة تلك الشجرة.

هل أدركت ماذا يعقب هذا الكلام؟ ما يعقب هذا الكلام أن ما نطلق عليه "قوانين الطبيعة" – كما أجرينا ذلك على مثال الشجرة – قد لا تكون قوانين بالمعنى الحرفي، وإنما ذلك يعني أسلوبًا كلاميًا، فحينما نقول أن سقوط الصخور المتكرر بسبب قانون الجاذبية، فإن ذلك لا يشبه قولنا بأن القانون يشرح وظيفة الصخور الدائمة، فأنت لا تفكر بتلك الطريقة حينما تترك الصخرة لتسقط، أو أن الصخرة فجأة تذكرت أن عليها الوقوع بسبب الخضوع لقوانين الجاذبية لتسقط على الأرض، إنما أنت تعني أنها تسقط وكفى. بمعنى آخر، أنت لست متأكدًا من وجود أي شيء يعلو ويفوق الحقائق نفسها، أي وجود قانون يفترض حدوث شيء ما، سوى تلك التي حدثت بالأصالة.

إن قوانين الطبيعة كما طبقناها على الصخور أو الأشجار معنية بشرح "ما هي وظيفة الطبيعة". ولكن لو رجعت إلى قانون الطبيعة الإنسانية، أو قانون السلوك الأخلاقي الملائم، فإن ذلك يختلف عن القانون السابق. لأن بالتأكيد ذلك القانون لا يصف ما يفعله البشر حقيقة. كما قلت مسبقًا أن العديد منهم لا يخضعون لذلك القانون إطلاقاً، ولا أحد أيضًا يقوم باتباعه بتمامه. إن قانون الجاذبية يخبرك عن عاقبة إلقاء الصخور، ولكن قانون الطبيعة الإنسانية يخبرك عمّا يفترض وما لا يفترض أن يفعله البشر. بمعنى آخر، حينما تتعامل مع البشر فإن

هناك عوامل أخرى تؤثر في الحقائق الفعلية، أي أنك تملك حقائق عن كيفية تصرّف الرجال مثلاً، وأيضا لديك شيء آخر عن الكيفية المفترضة لتصرفّهم. في النهاية لابد ألا يبقى في هذا الكون إلا الحقائق، إن الإلكترون والجزيء يتحركان في وجهة معينة وتتبع تلك الحركة نتيجة معينة وتلك هي القصة الكاملة* ولكن الرجال يتصرفون بطريقة معينة وليست تلك هي القصة الكاملة طالما أنك تعتقد أنهم يمكنهم التصرف بطريقة مغايرة.

الآن، من الغريب أن يقع على عاتق المرء محاولة تفسير ما يلي بطريقة سلسلة، فعلى سبيل المثال، قد نحاول أن نوضح ذلك لو افترضنا أنك قلت أن الرجل الذي لا يعمل كما يتوجب عليه، فأنت بالمماثلة تقصد أن تلك الصخرة شكلها خاطئ، أي أن ما يفعله الرجل غير ملائم بالنسبة لك، ولكن ذلك غير صحيح.

إن الرجل الذي يجلس في المقعد الموجود في زاوية القطار بسبب قدومه أولا، ورجلٌ آخر تسلل من خلفي مُبعدًا حقيبتي، كلاهما غير ملائمين تمامًا بنظري، ولكن عتبي يقع على الرجل الثاني لا الأول. أنا لا أغضب من رجل – للوهلة الأولى وقبل أن أسترجع إدراكي – قام بإعثاري بالخطأ، بل أغضب حينما يحاول أحدهم فعل ذلك متعمدًا وإن لم ينجح، على الرغم من أن الأول قد أوجعني على عكس الثاني. في بعض الأحيان قد لا يكون السلوك الذي أصفه بالسيء غير ملائم لي على الإطلاق، بل بالعكس، ففي الحرب، وجود شخص خائن في طرف يفيد الطرف الآخر، وعلى الرغم من أنهم سيستغلونه ويدفعون له إلا أنهم في واقع الأمر

* لا أعتقد أن تلك هي القصة الكاملة كما سترون لاحقًا، ولكن طالما أننا وصلنا إلى هذه النقطة فإن القصة قد تكون كما وصفت [المؤلف]

يعتبرونه حشرة بجسم إنسان. لذلك، من السذاجة القول بأن ما نطلق عليه سلوكًا لائقًا لدى الآخرين هو ببساطة سلوك مفيد لنا، كما في السلوك اللائق عندنا، فأنا أفترض أنه من الواضح عدم إيفاء ذلك السلوك دومًا، رضاك مثلاً بثلاثين شلنغ* في حين أنك تستطيع الحصول على 3 جنيهات إسترلينية، وكأن تقوم بواجبات المدرسة بأمانة في الوقت الذي يكون الغش أسهل، وأن تترك فتاة وحيدة في حين أنه باستطاعتك غشّها ومعاشرتها، وأن تبقى في أماكن خطرة في الوقت الذي يمكنك أن تكون بمكان آمن، وأن تحفظ وعودًا قطعتها في ظروف تدفعك نحو عدم إبقاءها، وأن تقول الحقيقة حتى لو جعلت منك أحمقًا.

يقول بعض الناس أنه بالرغم من أن التصرف الملائم لا يشير إلى ما يوجّه شخصًا معين في وقت معين، إنما يعني ما يوجه الجنس البشري ككل، وبالتالي لا توجد غرابة في ذلك. عمومًا، إن البشر يملكون منطقًا، فهم يرون أن الفرد لايمكنه أن يعيش حياة آمنة أو سعيدة إلا إذا كان يعيش في مجتمع يعيش أفراده بعدالة، ولأنهم يحملون تلك الفكرة لذا يحاولون التصرف بطريقة ملائمة. الآن، إن الأمن والسعادة منبعها الأفراد والطبقات الاجتماعية والأمم التي تعيش بصدق وطيبة مع بعضها البعض وهذه بالطبع حقيقة مؤكدة، وهي واحدة من أكثر وأهم الحقائق في العالم، ولكن المشكلة هي تفسيرنا للعلل وراء شعورنا حيال ما نفعل من الصواب والخطأ، إننا نقفز على النقطة الأساسية في التفسير. إذا تساءلنا: "لماذا علي ألا أكون أنانيًا؟" قد تجيبني: "لأن عدم كونك أنانيًا هو أمر جيّد للمجتمع"، وقد أطرح تساؤلاً جديدًا: "لماذا علي أن أراعي ما هو جيّد للمجتمع إذا ما كان الفعل الذي أقوم به يعود علي شخصيًا

* عملة إنجليزية أقل من الجنيه الاسترليني

بالنفع؟" وهنا يجدر بك أن تجيب: "لأنه يجب عليك ألا تكون أنانيًا"! الأمر الذي يعيدنا إلى بداية السطر.

أنت تصدح بالصدق ولكنك لا تتقدم قيد أنملة. إذا ما سأل أحدهم عن الهدف من وراء لعب كرة القدم، فإنه من غير المناسب الرد بـ "من أجل تسجيل الأهداف"، لأن محاولة تسجيل الأهداف هي بحد ذاتها اللعبة نفسها لا الهدف من وراءها، فأنت بذلك كأنك تقول أن كرة القدم هي كرة القدم. هذا هو الصدق الذي أقصده، ولكن لا قيمة له. وعلى هذا المنوال، إذا ما سأل أحدهم عن الهدف من وراء التصرف الملائم، فإنه من غير المناسب الرد بـ "حتى ينتفع المجتمع"، من أجل نفع المجتمع بمعنى ألا تكون أنانيا – لأن "المجتمع" بشكل عام يعني "الآخرين" –، نفع المجتمع هو أحد المكونات المتضمنة في السلوك الأخلاقي الملائم، فكل ما تقوله يصب في معنى أن السلوك الأخلاقي الملائم هو السلوك الملائم ذاته. فما قلته آنفًا يساوق ما نطقت به مؤخرًا من أن "البشر لابد وأن يكونوا غير أنانيين".

وأقف هنا في هذه النقطة القائلة بأن البشر لا بد وأن يكونوا غير أنانيين، أن يكونوا عادلين، لا أقصد أن البشر ليسوا أنانيين، ولا أنهم يجبون أن يكونوا أنانيين، ولكن أشير إلى ما يفترض أن يكون عليه البشر. إن القانون الأخلاقي أو قانون الطبيعة الإنسانية هو ببساطة ليس عبارة عن حقيقة بسيطة عن السلوك البشري بنفس الدرجة مع قانون الجاذبية الذي يعني هو الآخر واقع الأجسام الثقيلة. بالمقابل، إنه ليس ترفًا محضًا لأننا لا نقدر على التخلي عنه، وأن معظم الأشياء التي نقولها أو نفكر بها عن الجنس البشري ستكون بلا قيمة لو تخلّينا عن ذلك

القانون. وأنه ليس تعبير عن مدى رضانا حيال السلوك الذي يقوم به الآخرون، لأن السلوك الذي نطلق عليه صفة السوء أو الظلم لا يتطابق مع السلوك الذي نجده واقعًا غير ملائم، بل قد يكون على العكس. على إثر ذلك، قاعدة الصواب والخطأ هذا أو قانون الطبيعة الإنسانية أو سمّه بما شئت، لا بد وأن يكون له حضور حقيقي، شيء موجود فعلاً بمعزل عنّا دون أن نختلقه، وعلاوة على ذلك، فالقانون لا يعبر عن حقيقة بالمعنى البديهي لكلمة "حقيقة" كما هو الحال مع سلوكنا الواقعي، بل القانون يبدأ بالظهور كما لو اعترفنا بوجود أكثر من نوع للواقع، ففي هذه الحالة بالذات تتضح وجود أشياء تفوق وتتجاوز الحقائق البديهية عن السلوك البشري، وبالتأكيد إنها حقيقية، قوانين حقيقية تضغط علينا ولم يتمكن أحد منّا من تكوينها.

ما وراء القانون

لنستخلص ما وصلنا إليه حتى الآن: في حالة الصخور والأشجار والأشياء المشابهة التي نطلق عليها قانون الطبيعة، لا تعدو أن تكون طريقة في التعبير، فحينما تقول أن الطبيعة محكومة بقوانين معينة، فهذا يعني أن الطبيعة في الحقيقة تسلك سلوكًا معينًا. إن القوانين آنفة الذكر ربما هي غير حقيقية، هي أشياء لا تفوق ولا تتخطى الحقائق الفعلية التي نلحظها، ولكن في حالة الإنسان فإن الأمر مختلف، فقانون الطبيعة الإنسانية أو قانون الصواب والخطأ لابد وأن يتخطى ويفوق الحقائق الفعلية للسلوك الإنساني. ففي هذه الحالة يكون لديك إلى جانب الحقائق أشياء حقيقية أخرى، هي قوانين لم نقم باختراعها ولكننا نعلم بأن علينا اتباعها.

أرغب الآن أن أتأمل مغزى ذلك فيما يخص الكون الذي نعيش فيه. امتلك البشر القدرة على التفكير منذ الأزل وهم يتساءلون عن ماهية الكون وكيفية تكوّنه، وقد ظهرت وجهتي نظر حيال ذلك.

الأولى: هي النظرة المعروفة بالمادية، أصحابها أناس يرون أن المادة والفضاء قد وجدتا صدفة، لم يغيبا أبدًا ولا يعلم أحد ما عن سبب وجودهما، وأن المادة تتصرف في طرق معينة و محكمة ببساطة، وفق حادثة عشوائية ما لإنتاج مخلوقات قادرة على التفكير مثلنا. ففي صدفة نسبتها واحد إلى ألف ضرب شيء ما شمسنا وجعلها تنتج الكواكب، وبفرصة أخرى بنفس النسبة فإن العمليات الكيميائية الضرورية للحياة ودرجة الحرارة الصحيحة حدثت على

ذلك الكواكب، وبنفس المنوال جاءت المادة على كوكب الأرض، ثم بعد ذلك وخلال سلسلة طويلة من الصدف تطورت الكائنات الحية حتى وصلت إلى ما صرنا عليه اليوم.

أما وجهة النظر الثانية هي النظرة الدينية* تقوم هذه النظرة على حتمية وجود عقل أو ما يشبهه خلف هذا الكون، أي أن ذلك العقل يملك ضميرًا ومجموعة من الأهداف ويفضّل شيء على شيء آخر. وبناء على هذه الفكرة قام ذلك الشيء بخلق الكون لعلّتين: جزء يتعلق بأشياء لا نعلمها، وجزء من أجل إنتاج مخلوقات تشبهه من حيث امتلاك العقل. أرجو ألا تعتقدوا أن واحدة من هاتين الفكرتين قد تم تبنّيها منذ القدم والأخرى قد أخذت مكانها مع تقادم الزمن، فأينما كان هناك بشرٌ يفكرون فإن كلتا الفكرتين تم تبنّيهما. ولاحظ التالي أيضًا، لا تستطيع أن تكتشف أحقية إحدى الفكرتين عن طريق العلم بالمعنى المألوف، فالعلم بالمعنى المتعارف عليه يقوم على التجارب، عن طريق مراقبة حركة الأشياء، وكل تقرير علمي على مدى الأزمان يتّسم بالتعقيد كأن يقول: "لقد وجّهت المنظار نحو كذا وكذا في السماء في الساعة الثانية والعشرين دقيقة في الخامس عشر من يناير وقد شاهدت كذا وكذا" أو "لقد وضعت بعض من كذا في قدر وقمت بتسخينه إلى أن وصل لدرجة كذا ومن ثم حدث كذا وكذا" وأرجو ألا يتصور أحدهم أني أنتقد العلم فأنا أصف وظيفة العلم فقط. كذلك، كلما كان المتلقي علميّا أكثر، فإنه سيتفق معي – كما أعتقد– حول وظيفة العلوم وحول أهميتها. لكن لماذا يحدث كل ذلك؟ ولم كل شيء خارج نطاق المشاهدة العلمية هو شيء ذو طبيعة

* انظر الملاحظة في نهاية هذا الفصل [المؤلف]

مختلفة ويكون السؤال هنا غير علمي. إذا كان هناك "شيء ما ورائي" فلا بد أن يبقى غير معلوم للبشر أو يقوم بالتعريف عن نفسه بطريقة مختلفة عن المألوف.

عمومًا، كلتا الإجابتان سواء بوجود شيء ما ورائي أم لا، لا يستطيع العلم أن يقول بإحداها. والعلماء الحقيقيون لا يتبنّون إحداها عادة، بل إن الصحفيين والروائيين المشهورين الذين اختاروا بعض الغرائب والنتائج شبه العلمية من الكتب التي توافق نظرتهم هم الذين تبنّوا إحدى الفكرتين. على كلٍّ، إن المسألة متعلقة بالحس السليم، فلو فرضنا أن العلم أصبح مكتملاً بحيث قد غطى كل شيء في الكون، فهل تكون الأسئلة التالية بلا طائل: لماذا وُجد الكون؟ لماذا يسير الكون على هذه الطريقة؟ هل لذلك معنى؟ هل تبقى كل هذه الأسئلة بلا جواب؟

إن اتخاذ الموقف في هذا الموضوع بناءً على العلم بات بلا معنى، هناك شيء واحد فقط في الكون كله نعرفه أكثر مقارنة بما نستطيع أن نتعلمه عنه عن طريق المشاهدة الخارجية، ذلك الشيء هو الإنسان. فنحن لا نقوم بمراقبة الإنسان لأننا إنس، أي أننا في هذه الحالة نحن نراقب ما نعرف. وبسبب ذلك فإننا نعرف أن البشر محكومون بالقانون الأخلاقي الذي لم يشرّعوه بأنفسهم، القانون الأخلاقي الذي لا يقدرون على نسيانه حتى لو حاولوا ذلك، القانون الذي يعلمون أن عليهم اتباعه. لاحظ النقطة التالية: أي شخص يقوم بدراسة الإنسان من الخارج كما يدرس الكهرباء والنباتات من دون أن يعرف لغتنا وبالتالي لن يتمكن من استخراج أي معرفة موجودة داخلنا، بل فقط يقوم بمراقبة ما فعلناه، فإنه لن يحصل على أكثر

الدلائل بداهة من أننا نملك ذلك القانون الأخلاقي. بل كيف يستطيع أن يعرف شيء بينما ملاحظاته منصبة على ما فعلناه، والقانون الأخلاقي يتعلق بما يفترض أن نقوم بفعله. وعلى نفس المنهج، إذا كان هناك شيء ما خلف أو فوق الحقائق الملحوظة في الصخور أو الطقس، فإن دراسة الصخور أو الطقس من الخارج لن تمكنّا من اكتشاف شيء حيالها.

بالتالي، السؤال المطروح يتمحور حول رغبتنا بمعرفة عمّا إذا كان الكون قد حدث بلا سبب أو أن هناك قوة خلفه قد أوجدته كما هو، بحيث لو كان هذه القوة التي نفترض وجودها، هي ليست من إحدى الحقائق الملحوظة وإنما هي واقع يصنع تلك الحقائق، وأن الملاحظات المجردة حول الحقائق لا يمكنها إدراك تلك القوة. هناك حالة واحدة فقط تمكننا إدراك قضيتنا الأساسية، وفي هذه الحالة فقط نستطيع أن ندرك قضيتنا. للتوضيح، لو كانت هناك قوة خارجية مسيطرة على الكون، فإنها لا تُظهر نفسها لنا من خلال الحقائق الموجودة في الكون، كما أن المهندس المعماري الذي صمّم منزلاً ما لا يكون حائطًا أو سُلّمًا أو موقدًا في ذلك المنزل. إن الحالة الوحيدة التي من الممكن أن تُظهر قضيتنا هو أن نبحث في داخلنا عن تأثير معيّن أو صيغة أمر تحاول أن توجّهنا للتصرف بطريقة محددة، وهذا ما نجده في داخلنا تمامًا.

بالطبع ذلك سيثير شكوكنا، ولكن الإجابة ستكون حتما بـ"نعم" لو بحثت في المكان الوحيد الذي افترضنا وجود الحل فيه، وفي الأماكن الأخرى، لو بحثت فيها فإنك لن تجد إجابات محددة وستفهم حينها لماذا لم تجدها. لنفترض أن أحدهم سألني: إذا شاهدت رجلاً يرتدي بزة زرقاء يمشي في الشارع تاركًا مغلفات ورقية [البريد] على باب كل منزل، لماذا

تفترض أن تلك المغلفات تحتوي رسائل؟ إجابتي ستكون: لأنه كلما ترك ذلك الرجل مغلفًا صغيرًا مشابهًا على بابي، فإنني أكتشف أنه قد أوصل رسالة لي. حينها قد يعترض: لكنك لم تشاهد كل تلك الرسائل التي تفترض أن أولئك الناس قد استلموها. حينها عليّ القول: بالطبع لم أفعل، كما أنني لا أتوقع أن أفعل لأنها ليست مرسلة لي، أنا فقط أشرح نقطتي من خلال رسائلي التي أستطيع فتحها مقاربة بالرسائل التي لست مخولاً لفتحها. إن الإجابة على سؤالنا تأتي بنفس الطريقة، فالمغلّف الوحيد الذي أستطيع فتحه هو الإنسان، وحينما أفعل، خصوصًا المغلّف الذي يخصّني [أي نفسي]، فإنني لا أكون موجودًا في داخلي، فأنا محكوم بقانون بحيث هناك أحدٌ ما أو شيء ما يريدني أن أتصرّف بطريقة محددة في حياتي.

بالطبع أنا لا أفكر بأن أدخل داخل شجرة أو صخرة حتى أجد ذات الشيء، كما أنني لا أفكر في فتح رسائل الناس الموجودة في الشارع. بل أنا – على سبيل المثال – أجد أن الصخرة عليها أن تطيع قانون الجاذبية فهي مجبرة على طاعة طبيعتها الصخرية، كما أن مرسل تلك الرسائل الخاصة بي يأمرني بأن أطيع قوانين طبيعتي الإنسانية. وبالعموم، أنا أتوقع أن أجد هناك "مُرسلا" للرسائل في كلا الحالتين، "قوة" خلف الحقائق، "قائدًا"، "مُرشدًا".

لا تظنوا أنني أسرع كثيرًا، فأنا إلى الآن بعيدٌ جدًا عن الرب كما هو في اللاهوت المسيحي، فكل ما وصلت إليه هو "شيء" يدير هذا الكون، هذا الـ"شيء" يظهر خلالي كقانون يحثني على فعل الصواب. ويشعرني بالمسؤولية والضيق إذا ما ارتكبت شيئًا خاطئًا. أعتقد أنه علينا أن نفترض أن ذلك الشيء هو أقرب لكونه "عقلاً" من أي شيء آخر نعرفه،

لأن كل شيء آخر نعرفه هو عبارة عن "مادة"، ويصعب التخيّل أن مادة بسيطة يمكنها أن تصدر الأوامر. لكن بالتأكيد، ذلك الشيء ليس عقلاً بالمعنى الذي نعرفه، وليس بشرًا أيضًا، وفي الفصل التالي سننظر إذا كنا سنجد معلومات إضافية عن ذلك الأمر، ولكنني أحذر القارئ: لقد كثُرت التملّقات والحديث الواهن عن الرب في السنوات المئة الأخيرة، وليس هذا ما أقدمه هنا، حتى أقطع دابر الظنون.

❖ ملاحظة

حتى نجعل هذا الفصل يحتل مساحة أقل من الحديث المُذاع على الهواء، ذكرت فقط الفكرتين المادية والدينية، ولكي أكمل عليّ أن أذكر الفكرة العابرة في المذياع المسماة بـ "فلسفة قوة الحياة" أو "التطور الخلاّق" أو "التطور الطارئ". إن الشرح الأبرع ينجلي من خلال أعمال برنارد شو[1]، ولكن الأشهر منها هي أعمال هنري بيرغسون[2]. الأشخاص المعتقدين بهذه الفكرة يقولون بأن كل الأشياء الصغيرة المختلفة التي أوجدت الحياة على هذا الكوكب وحتى الإنسان لم يوجدوا بسبب الصدفة، بل بسبب كفاحها أو كتعليل لـ "قوة الحياة". حينما يطرح أولئك الناس فكرتهم، علينا أن نطرح عليهم تساؤلاً: هل قوة الحياة التي يقصدونها عاقلة أم لا؟ إن كانت الإجابة بنعم، فإن "العقل الذي يجلب الحياة للوجود ويقودها للكمال" هو حتما الرب، بالتالي فإن نظريتهم مطابقة للفكرة الدينية. أما إذا كانت الإجابة بلا، فما الغاية

---

(1) كاتب أيرلندي (1856–1950) انشغل بنظرية التطور وفكرة الوصول إلى الرجل "السوبرمان". [المعرّب]

(2) فيلسوف فرنسي (1859–1941) انشغل بنظرية التطور وأصل الحياة وآمن بأن التغيّر هو النضج والنضج هو الخلق المستمر للذات الواعية وأن المادة نشأت من نزوة حيوية تجمدت ثم تمددت. [المعرّب]

من القول بأن هناك شيء ما بلا عقل يكافح أو يملك أهدافًا؟ بالنسبة لي، هذا التساؤل مهمٌ جدًا لفكرتهم، وهناك سبب واحد يدفع الناس للإعجاب بـ "التطور الخلاّق" وهو أنه يعطي الفرد الشعور بالراحة النفسية المشابهة لتلك الموجودة في الاعتقاد بالرب، ولكن دون أدنى من تلك الراحة المبهجة[1].

حينما تشعر بالعافية والشمس مشرقة وأنت لا ترغب بالاعتقاد أن كل الكون هو محض تفاعل كيميائي بين الذرات، فإنه من الجميل أن تفكر بأن هذه "القوة" الغامضة التي تدّعيها تُكمل مشوارها على مر الأزمان وأنت موجود على ظهرها منذ الأزل. وعلى العكس، إذا أردت أن تفعل شيئًا منحطّا، آمن بأن قوة الحياة تلك هي قوة عمياء بلا أخلاقيات ولا عقل، لا تتداخل معك كما يفعل الرب المثير للجدل الذي تعلمناه عندما كنّا صغارًا، فقوة الحياة هي إله وديع، تستطيع أن تشغّله متى شئت ولن يقوم بإزعاجك، لا استثارات دينية ولا عواقب. ترى هل "قوة الحياة" هي أعظم إنجاز فكري شهده العالم حتى هذه اللحظة؟

(1) أي راحة نفسية بدون مخاوف أو قلق من الوعيد كما هو في النظريات الدينية [المعرّب]

لدينا سبب يدفعنا للقلق

أنهيت الفصل السابق بفكرة متعلقة بالقانون الأخلاقي قوامها أن الشيء أو الشخص من وراء العالم المادي هو في الحقيقة محيط بنا، وقد توقعت أنني حينما وصلت إلى تلك النقطة أن بعضًا منكم قد شعر بالإنزعاج، بل ربما ظنّ بعضكم أنني قد استغفلتكم بأنني غلّفت القضية بحذر حتى تظهر لكم وكأنها مسألة فلسفية ذات باطن ديني. ربما شعرتم بأنكم مستعدين للإنصات إليّ لأنكم اعتقدتم بأن لدي ما هو جديد، ولكن في حال اتضح أن كلامي يتمحور حول الدين فقط، فإنكم سترفضون ذلك لأن العالم قد حاول معكم ذات الشيء من قبل ولن أستطيع أن أعود بعقارب الساعة لكم. إذا شعر أحدكم بذلك فإن لدي ثلاثة أمور أود أن أطرحها عليه.

الأمر الأول متعلق بخصوص العودة بعقارب الساعة للوراء، هل كنت ستعتقد بأني أستهزأ حينما أقول بأنه يمكنك العودة بالوقت، خصوصًا حينما تكون الساعة غير مضبوطة فإن المنطق يفترض العودة بها للوقت الصحيح؟ أفضّل حقيقة الابتعاد عن فكرة الساعات، فإننا جميعًا نريد التقدم، والتقدم يعني الاقتراب أكثر وأكثر من المكان الذي ترغب بالوصول إليه، وحينما تسلك الطريق الخطأ، حينها التقدم أكثر لن يقرّبك من المكان الذي تريد. إذا كنت في الطريق الخطأ، فإن التقدم يعني العودة إلى الوراء لأخذ الطريق الصحيح، وفي هذه الحال فإنّ الإنسان الذي يعود إلى الوراء أسرع، فإنه الأكثر تقدمًا على الإطلاق. لقد شاهدنا جميعًا ذلك في العمليات الحسابية التي نقوم بها، فحينما أقوم ببدء الجمع وأنا على خطأ، فسرعان ما أعترف بذلك وأعود للوراء والبدء من جديد بأسرع وقت ممكن. إن التقدم لا يعني إطلاقا التزمّت وعدم الاعتراف بارتكاب الخطأ والعناد والإصرار على ذلك. وأظن أنك لو نظرت

لحال العالم في الوقت الحاضر، لشاهدت جليّا بأن الإنسانية ترتكب خطئًا كبيرًا. إننا على الجادة الخطأ، وطالما أننا كذلك، فإنّ علينا العودة للوراء بأسرع طريقة ممكنة.

الآن، الشيء الثاني الذي أود قوله هو أن هذا الدور ليس دورًا دينيًا تقليديًا، فنحن لم نبتعد عن الرب أكثر من أي دين آخر، ذلك الرب لذلك الدين المعروف بالمسيحية، نحن فقط ابتعدنا كابتعاد شخص ما أو شيء ما عن القانون الأخلاقي، فنحن لا نتناول أي شيء من الكتاب المقدس أو من الكنيسة، بل نحن نحاول أن نرى ما نستطيع أن نجده عن تأثير ذلك الشخص في انفعالاتنا، وأود أن أوضح ذلك بالقول أن ذلك الشيء الذي يؤثر في انفعالاتنا يزودنا بالحافز، ولدي دليلين على ذلك: الأول هو الكون الذي صنعه، ولو استخدمنا ذلك على أنه دليلنا الوحيد إذا فعلينا أن نختم حديثنا بالقول أنه فنّان عظيم، لأن الكون مكان جميل جدًا، ولكن أيضًا هو خالق بلا رحمة نوعًا ما وغير ودّي مع البشر، لأن الكون مكان خطيرٌ جدًا ومرعبٌ في ذات الوقت. أما الدليل الثاني فهو أن القانون الأخلاقي المزروع في أذهاننا. وهذا الدليل أفضل قليلًا من الدليل الآخر لأنه يقبع داخل المعلومات، فأنت تكتشف عن الرب من القانون الأخلاقي أكثر من اكتشافك عنه من الكون بشكل عام، كما أنك تكتشف عن إنسان ما من استماعك لحواراته أكثر من مشاهدتك للمنزل الذي بناه. من هذا المنطلق أختم بالقول أن ذلك الوجود الخالق للكون مهتم بشدة في السلوك الملائم العادل، في الإيثار وفي الشجاعة وفي الإيمان السليم وفي الأمانة وفي الصدق. ومن خلال هذا المنطق يجب أن نتفق مع القيمة الإلهية التي تقدمها المسيحية وبعض الديانات الأخرى، وهي أن الله هو إلهٌ حَسَن. وعلينا ألا نستعجل هنا، فالقانون الأخلاقي لا يترك أي أرضية لكي نظن أن الله هو إله حسن بمعنى أنه

متساهل، أو رقيق أو متعاطف، فالقانون الأخلاقي لا يعرف التسامح، بل هو حاد المخالب يأمرك بالاستقامة ولا يبدو أنه يهتم لحجم الألم أو الخطورة أو الصعوبة المترتبة عليها. فإذا كان الرب يشبه القانون الأخلاقي إذا هو ليس رقيقًا. ولا يوجد سبب في هذه المرحلة من الحديث يجعلنا نقول بأن مانعنيه من "الإله الحَسَن" هو أنه إله قادر على المسامحة، فأنت تستعجل بالأمر هنا، فالإنسان هو القادر على المسامحة فقط، فنحن لم نصل إلى الآن للحديث عن كينونة الرب، نحن فقط نعلم بوجود قوة خلف القانون الأخلاقي، قوة أقرب من العقل إلى أي شيء آخر، وتظل هذه القوة بعيدة عن كونها إنسية، بل هي عقل محض وغير بشري، فلا يوجد سبب وجيه لتطلب من ذلك العقل أن يمنحك بعض الحسومات أو يتركك على هواك، كما أنه لا سبب منطقي يجعلك تلتمس من جدول الضرب أن يتركك على مزاجك حينما ترتكب أخطاءً حسابية، فأنت مقيّد عن تقديم إجابات خاطئة. كما أنه لا يعقل القول بأنه لو كان هناك ربٌ من ذلك النوع غير البشري والموصوف بالحسن المطلق موجودًا فإنك لن تحبه ولن تهتم حتى لأمره، وذلك لأن المشكلة في أن جزءًا منك مرتبط فيه بحيث يتفق هذا الجزء مع عدم استحسانه للجشع والخداع والاستغلال البشريين، ربما تود أنت أن تحصل على إجازة خاصة منه كي تزِلَّ هذه المرة، ولكنك تعلم في صميم قلبك أنه لولا كون هذه القوة خلف العالم هي قوة حقيقية ومبغضة بشكل راسخ لمثل ذلك السلوك، فإنه حتمًا لن يكون إلهًا حسنًا لو منحك الإجازة. بل على العكس، فنحن نعلم أنه بما أن ذلك الحَسَن المطلق موجود فإنه حتمًا سيكون مبغضًا لمعظم ما نقوم به من أعمال، هذه هي المعادلة الصعبة التي نحن نعيش فيها، فلو لم يكن هذا الكون محكوم بالحسن المطلق، فكل جهودنا على مر الزمن هي بلا طائل. ولكن لو كان

ذلك الوجود موجودًا، فإننا نجعل من أنفسنا أعداءً وبشكل يومي لذلك الحَسَن، ولن نقوم بما هو أفضل غدًا، وبالتالي فإنّ قضيتنا خاسرة أيضًا في هذه الحالة. أي في كلا الحالتين نحن خاسرون، والرب هو الملجأ الوحيد، وهو أيضًا الرعب الأعظم، فهو الشيء الذي نريده بشدة وبنفس الوقت نختبئ عنه، هو حليفنا الممكن والوحيد، ونحن جعلنا من أنفسنا أعداءً له. يتحدث بعض الناس وكأن مواجهة تحديق ذلك الحسن المطلق بنا هو أمر ممتع، عليهم أن يفكروا مرة أخرى، فهم في الحقيقة يلعبون بالدين. فالحَسَن هو إمّا الأمان العظيم أو الخطر الجلل، كل ذلك حسب ما تتصرف تجاهه، ونحن قد تصرفنا بشكل خاطئ.

أنتقل الآن إلى النقطة الثالثة، حينما قررت أن أصل إلى موضوعي الأساسي في هذه الطريقة غير المباشرة، فإنني لم أكن أحاول أن أحتال عليك بأي طريقة كانت، فلدي سبب آخر وهو أن الفكر المسيحي[1] لن يكون ذو معنى حتى تواجه أنت هذه الحقائق التي أحاول وصفها. إن المسيحية تدعو الناس للتوبة وتعدهم بالمغفرة، لذلك فإن المسيحية -على حد علمي- ليس لديها أي شيء تقوله للذين لا يعلمون أنهم ارتكبوا ما يستوجب التوبة ومن لا يشعرون بحاجتهم للمغفرة. فبعد أن تدرك أن هناك قانون أخلاقي حقًا، وأن هناك قوة خلف ذلك القانون وأنك قد كسرت ذلك القانون ووضعت نفسك في قبالة تلك القوة وبشكل خاطئ، بعد كل ذلك فقط تتقدم المسيحية لتتحدث دون أدنى تأخير. عندما تعرف أنك مريض، فإنك ستستمع للطبيب. عندما تدرك موقفنا شبه اليائس حينها ستفهم عمّ يتحدث "المتدينون" الحقيقيون، فهم يقدمون شرحًا لكيفية وصولنا لهذه الحالة من بغض وحب الحُسن في ذات

[1] والديني السماوي عمومًا [المعرّب]

الوقت، هم يقدمون تفسيرًا لكيفية كون الرب متجردًا عن العقل البشري الذي يستند إليه القانون الأخلاقي وبنفس الوقت كونه كيانًا. يشرحون متطلبات هذا القانون، تلك المتطلبات التي لا أستطيع لا أنا ولا أنت من اتباعها، التي لو اتبعانها فإن الرب بنفسه يتحول إلى إنسان ينقذ إنسانًا آخر من سخط الرب. إنها قصة قديمة ولو كنت ترغب بالاستماع لها فإنه يتحتم عليك مراجعة المخوّلين لقصّها عليك، فأنا لست مخوّلاً. كل ما أقوم به هو دعوة الناس لمواجهة هذه الحقائق حتى يفهموا الأسئلة ومن ثم الإجابات التي تدعي المسيحية أنها تقدمها، وهي فعلاً حقائق مرعبة. أتوق إلى قول شيء مقبول، ولكن يجب علي أن أقول ما أعتقده صوابًا. عليّ بالتأكيد أن أعتقد بأن المسيحية وعلى طول التاريخ هي عبارة عن ديانة الراحة الصامتة، ولكن الخوض فيها لا يبدأ بالراحة، بل يبدأ بالرعب الذي قد كنت أصفه آنفًا، ولا جدوى من البدء بالراحة بدون المرور بالرعب أولاً. في الدين والحرب وفي أي شيء آخر، تعتبر الراحة الشيء الذي لن تحصل عليه عن طريق البحث عنه، فلو كنت تبحث عن الحقيقة، فإنك ربما تجد الراحة في النهاية، أما لو كنت تبحث عن الراحة فإنك لن تجد لا الراحة ولا الحقيقة، بل ستجد تملّقا ومداهنة وتفكير رغائبي أجوف تبدأ به ومن ثم تنتهي خالِ الوفاض. معظمنا قد تجاوز مرحلة التفكير الرغائبي الأجوف لما قبل الحرب والسياسة الدولية، علينا أن نفعل ذات الشيء مع الدين.